العرب
الإثنين 2020/05/11
السنة 42 العدد 11699

فكرة العروبة شبيهة بالجائحة عند الإسلاميين القطبيين

جماعة الإخوان أحدثت في وعي منتسبيها خصومة بين الإسلام وفكرة العروبة

دأب القائمون على ثقافة الإسلام السياسي على تحقير فكرة العروبة، وأصروا على شيطنتها وتلبيسها –تعسفا– مقاصد حديث الرسول عليه الصلاة السلام عندما قال عن شيء آخر وفي حدث ملتبس "دعوها فإنها مُنتنة". وقد وصل الاستعداء بمنتسبي "الإخوان" إلى حدّ التكفير، وكأن من يقولون بالعروبة، قد جعلوها بديلا لدينهم، وليس للتأكيد عليه وعلى هويتهم. فهؤلاء عندما يخاصمون أو يبغضون، لا يقيمون وزنا لمنطق العدالة أو رجاحة العقل.

عدلي صادق
كاتب وسياسي فلسطيني

قصة النزعة النتنة، التي تحدث عنها الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) لا علاقة لها بحق المسلم في التعريف بهويته العرقية والاعتزاز بها وطلب رفعتها. ففي حكاية الغُلامَيْن اللذين كَسَعَ أحدهما الآخر (أي ضربه بيده) واستنجد المضروب وهو من أنصار "المدينة" بقبيلته للانتصاف من المهاجرين؛ لم يكن هناك حدث يتعلق بالعروبة، وإنما هو محض "كسعة" من صبي لآخر، جعلت النبي عليه السلام ينطق بالجملة العطرة، التي تفيد معنى كراهة العصبيات الثأرية والاقتتال، وإفساد التعايش وحال التنوع القبلي والثقافي، الذي يتيح لكل إنسان تظهير هويته الكبرى وهويته العائلية والقبلية. وهذا أمر مطروق في تاريخ السيرة النبوية والسلف الصالح.

أما "المنتنة" التي يقصدها النبي، فهي الاستجارة التي تؤجج الخصومة وتثير العصبيات، ولا علاقة للأمر بالأمة التي أرادها رب العزة أن تكون قاعدة انطلاق للرسالة. فقد كان ذلك الأمر شيئا، وموضوع العرب والعروبة شيئا آخر!

الدعوة ونقطة الانطلاق

لقد اختار رب العالمين، في القرن السابع الميلادي، أمة العرب حصرا، لكي تحمل رسالة السماء. ومعنى هذا، استطرادا، وفي سياق سردية الإيمان والبعثة النبوية؛ أن سبحانه كان يعرف أيضا، أن وضع العرب قد انحرف، وأن رسالة التوحيد التي حملها الأنبياء من قبله، قد اختلط فيها الغث بالسمين، حتى اقترب بعضها من الوثنيات أو ذابت فيها، وانقسمت الأمم والعقائد شرقا وغربا.

في رسالة الإسلام، بدأت القصة عربية بامتياز: فالربّ المُتعالي، أراد أن يبعث رسولا في أمّة العرب، لكي يجعلها جامعة للشعوب والقبائل، وشدّد –سبحانه– على ضرورة أن يكون الابتعاث إلى قوم ولسان عربيّيْن. فلا بد للدعوة من نقطة انطلاق، موقعا وثقافة وانتماء. وبالطبع لن يتحدث المبعوث إلا بلسان أمته، وسيتخذ منها خاصته وأصحابه ويؤسس قاعدة انطلاق. فالله سبحانه هو القائل في مفتتح سورة إبراهيم "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه ليبيّن لهم".

> الإخوان المسلمون ولفرط غلهم وبغضائهم، جعلوا من كلمة العروبة أو الأمة العربية، أمرا مستفزا لهم ومعادلا موضوعياً للمروق على الدين

غير أن التميز الذي حاز عليه محمد عليه الصلاة السلام، هو أن من سبقوه بدأوا في أممهم وانتهوا فيها، أما خاتم الأنبياء، فقد أراد له رب العزة أن يبدأ في قومه ولا ينتهي فيهم وبهم، وإنما ينطلق منهم ويتجاوزهم إلى شعوب أخرى، على أن يظل شعبه في مركز القلب بحكم دوره التاريخي الخاص في نشر الدعوة، وقد أجاز الله ذلك بقوله تعالى في سورة "الزُخرف"، "وإنه لذِكرٌ لك ولقومك وسوف تُسألون"!

في ذلك السياق، أرسى الدين الإسلامي مفهوما جديدا للعروبة، يختلف عن مفهومها في العصبيات الجاهلية، وهو نفسه المفهوم المتداول، الذي اعتمده في العصور اللاحقة، جميع الذين كتبوا عن الفكرة القومية، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين. وفي الحقيقة، افتتح النبي محمد عليه الصلاة السلام، فكرة الأمة بطريقة مختلفة تُضفي عليها بُعدا إنسانيا وحضاريا، لأن قبائل الجزيرة العربية، لم تكن تشكل أمة منسجمة، وإن كان يجمع بينها اللسان العربي. ووفق المفهوم الجديد، وبالمنطق الموضوعي للأحداث في صدر الإسلام، خرج من بوتقة الأمة، من لم يؤمنوا بالرسالة من العرب، وأولئك هم الذين وُصفوا بـ"الكافرين" بينما انفتح صدر الأمة بمفهومها الجديد، لرجال من أعراق أخرى، اكتسبوا مكانة مرموقة، في مجتمع العرب الذي يمثل قاعدة الرسالة. وكان أولئك الأخيار، أو العرب الجدد، ومن جاؤوا بعدهم في الأمصار بعد تبليغ الرسالة؛ قد استعربوا وأتقنوا لغة القرآن الكريم، واندمجوا في الأمة العربية حاملة الرسالة، متسمين بخطى بلال الحبشي وسليمان الفارسي وصهيب الرومي وغيرهم.

إن هذا هو المنحى الذي أرساه النبي محمد عليه الصلاة السلام، وواجه به من أنكروا عروبة المسلمين المستعربين، حانقا على من يحاولون نزع صفة العروبة عن عرب اللسان، استنادا إلى العروبة الجاهلية في مألوفها القديم. دعا الناس وخطب فيهم قائلا "يا أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمن تكلم بالعربية فهو عربي".

على هذه القاعدة، تأسست التجربة الحضارية الاجتماعية الأولى للإسلام في يثرب، إذ كانت سبّاقة إلى وضع أسس الدولة التي يتساوى فيها المواطنون وتتسم بالتنوع وبالتمايز، دون أن يعطل انصهار القبيلة في الأمة، بل يجعل للأمة نفسها مستويين: أمة السياسة التي تجمع العرب، مسلمين وغير مسلمين، وأمة الدين التي اشتملت على المسلمين، بينما يظل الجميع مبدأ السلم الأهلي ومشتركات الثقافة والآمال والمصالح، وقد جسّد الرسول الكريم، هذا الأمر، عندما نزع فتيل الحرب بين قبيلتي الأوس والخزرج، اليهوديتين، في اللحظة الأخيرة، قبل أن يبدأ التذابح.

افتعال التناقض

مع ظهور جماعة "الإخوان" ومنذ انتقالها من طورها الأول، كجمعية دعوية "تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر"، إلى طور التنظيم الذي اتخذ لنفسه منحى سياسيا؛ لم تكن فكرة العروبة مستهدفة أو موضوعا للذم والتكفير. فقد كان حسن البنا، مؤسس الجماعة يستخدم مفهوم العروبة ويركز عليه ويمتدحه. على الرغم من ذلك ظهرت في حياته، النزعة الرافضة للتنوع في المجتمع، على النقيض من تجربة النبي عليه السلام في يثرب، وكان المسيحيون مُستهدفين في منتصف أربعينات القرن الماضي، ومعهم اليهود من "الربانيين" و"القرائين" في مصر. وبعد أن أخذ العنف الإخواني مداه، وظهر فكر سيد قطب، شهدت الجماعة تحولا فكريا أشد تطرفا وأعمق تورطا في السياسة وفي حسابات الحكم. فكأن قطب انقلب بما كتب، على منهجية حسن البنا، التي تخلط العنف مع إظهار الاعتدال السياسي واعتماد السرية والتحايل. وذهبت الجماعة في طريقها الشائك حتى الآن، وهو الطريق الذي ساعد على تفريخ ما يُسمى "السلفية الجهادية" وسيؤدي في المحصلة إلى تدمير "الجماعة".

مقت العروبة وهرولة نحو مشاريع مغالية

ففي هذا السياق القطبي، أصبحت جماعة "الإخوان" تمقت فكرة العروبة، وتتطير منها، ليس من حيث معناها ومن حيث كونها هوية أمة كانت قاعدة انطلاق الرسالة، وإنما من حيث كونها فكرة تحدث عنها أو دعا إليها جمال عبدالناصر في مصر وحزب البعث في سوريا.

فقد أرادت الجماعة محاسبة فكرة العروبة بجريرة الزنازين، وليس بالتأمل في تجربة الزنازين والبحث عن أسبابها ودواعيها بموضوعية، وتحديد أخطائها وتجاوزاتها وأخطاء الأطراف الآخرين وتجاوزاتهم. لكن "الإخوان" ولفرط غِلّهم وبغضائهم، جعلوا من كلمة العروبة أو الأمة العربية، أمرا مستفزا لهم ومعادلا موضوعيا للمروق على الدين، وكأن كوننا ضمن الأمة الإسلامية، التي تشمل المسلمين في آسيا وأفريقيا، وهي أمة الدين، قد أصبحت تبرر إنكار أمة العرب، التي هي أمة دين وسياسة، تشمل كل ذي لسان عربي. وبهذا التوجه أوقعت "الجماعة" في وعي الناشئة والكبار من منتسبيها، خصومة ضارية بين الإسلام وفكرة العروبة، وزاد الأمر شطا عندما أصبحت الجماعة تظن أن ذلك يساعدها على جعل العرب المسلمين، معطوفين على المشروع التركي باعتباره مشروعهم، وكأن مشروعات تركيا وإيران وباكستان، تمضي في سياقات منفصلة عن قومياتها وألسنتها وثقافاتها!

لعل من المفارقات الطريفة، أن فكرة العروبة في المجتمع المغاربي، العربي والأمازيغي، تخلق إحساسا فطريا بمضمونها الإسلامي الذي تحدث عنه المفكر محمد عابد الجابري وآخرون كثر، يؤكدون على أن "الإسلام روح القومية العربية، والقومية العربية حاملة رسالته الثورية الإنسانية".

فهذه الفكرة، موجودة في الوعي الشعبي الجزائري، من دون قراءة، لأنها في ذهنهم نقيضة الاستعمار "الصليبي" والمعادل الموضوعي للإسلام كهوية أمة، لكن هذه العروبة نفسها، عند خصومها "الإخوان" في المشرق، مأخوذة بحسابات ضيقة، وبتعليلات ظرفية، جعلتهم يصرون على عدائها إلى الأبد، كرد فعل على مشروعات قومية إما مات أصحابها منذ أكثر من نصف القرن، أو جعلها القائمون عليها نوعا من المصائب التي تلد أخرى، وكأن هؤلاء الذين غابوا أو جلبوا الكوارث، يمثلون العروبة، من حيث كونها توصيفا لهوية أمة.

دعوة دولية الى صلاة جماعية بكل اللغات لحفظ البشرية من الوباء

في مبادرة مناقضة لما قدمته تيارات الإسلام السياسي من تفاعلات مع تفشي فايروس كورونا، دعت اللجنة العليا للأخوة الإنسانية، إلى صلاة من أجل الإنسانية يوم 14 مايو الجاري، وهي مبادرة تكمن أهميتها في أنها تتجاوز الانتماءات الدينية الضيقة، وفي كونها تحرص على أنها لا تمثل قطيعة مع جهود البحث العلمي في التصدي للوباء، فضلا عن كونها تمثل حالة من التوحد حول الجانب الإيماني لدى الإنسان.

أبوظبي – أصدرت اللجنة العليا للأخوة الإنسانية بيانا دعت فيه القيادات الدينية وجموع الناس حول العالم للصلاة والصيام والدعاء من أجل الإنسانية الخميس 14 مايو الجاري والتوجه لله تعالى بصوت واحد ليحفظ البشرية وأن يوفقها لتجاوز جائحة كورونا.

وصدر البيان بـ14 لغة هي العربية والإنجليزية والصينية والإسبانية والألمانية والإيطالية والفارسية والعبرية والتركية والأردو والبشتو والسواحلية والإندونيسية والفرنسية، وجاء فيه أن "عالمنا يواجه اليوم خطرا داهما يهدد حياة الملايين من البشر حول العالم، بسبب الانتشار المتسارع لفايروس كورونا، وإننا إذ نؤكد إيماننا بأهمية دور الطب والبحث العلمي في التصدي لهذا الوباء، فإننا لا ننسى أيضا أن نتوجه إلى الله الخالق في هذه الأزمة الكبيرة، ولذا فإننا ندعو كل الناس، في جميع أنحاء العالم، أن يتوجهوا إلى الله بالصلاة والصوم والدعاء، كل فرد في مكانه، وعلى حسب دينه أو معتقده أو مذهبه، من أجل أن يرفع الله هذا الوباء، وأن يغيثنا من هذا الابتلاء، وأن يلهم العلماء لاكتشاف دواء يقضي عليه، وأن ينقذ العالم من التبعات الصحية والاقتصادية والإنسانية جراء انتشار هذا الوباء الخطير.

وأكد الكاردينال ميغيل أنخيل أيوسوغويكسوت، أمين سر المجلس البابوي للحوار رئيس جلسات اللجنة العليا للأخوة الإنسانية أهمية هذه الدعوة الإنسانية، داعيا جميع الناس أينما كانوا للانضمام إليها يوم 14 مايو الجاري للصلاة والدعاء من أجل الإنسانية التي تواجه خطرا كبيرا بسبب الانتشار المتزايد لوباء فايروس كورونا، موضحا أنه من خلال التضرع إلى الله وأفعالنا الملموسة يمكن أن يصبح عالمنا أكثر وحدة وتضامنا وإخاء، وأن يعود السلام والطمأنينة إلى العالم كله.

وقال المستشار محمد عبدالسلام، الأمين العام للجنة العليا للأخوة الإنسانية، إن التفاعل الكبير مع دعوة الصلاة من أجل الإنسانية من قادة وشعوب العالم يعزز التضامن الإنساني ويمنحنا الأمل في تحقيق وحدة عالمية تقوم على مبادئ الأخوة الإنسانية من أجل سلامة وأمن وصحة الجميع.

وأشار إلى أن تجمع العالم للصلاة والدعاء لله لرفع الوباء يجسد الحلم في وحدة إنسانية حقيقية يحتاجها العالم اليوم أكثر من أي وقت مضى.

وأوضح الدكتور محمد المحرصاوي رئيس جامعة الأزهر عضو اللجنة العليا للأخوة الإنسانية أنه في ظل هذه الأزمة العالمية ربما تكون الجائحة قوية للدرجة التي تسبب بها هذه الخسائر الفادحة في الأرواح والاقتصاد، لكنها ليست أقوى من إيماننا بالله، سوف نبتهل إلى الله من أجل الإنسانية، وسنرفع أكف الضراعة لينقذنا من هذا الوباء، وواثقون في أن الله سيشملنا برحمته ورعايته، داعيا كل المنتسبين لجامعة الأزهر العريقة أن ينضموا لهذه المبادرة الإنسانية الرائدة.

وقال الحاخام بروس لوستيج، كبير حاخامات المجمع العبري بواشنطن عضو اللجنة العليا للأخوة الإنسانية إن الله يسمعنا دائما ويرى حالنا، وهو أعلم بما تمر به الإنسانية من مصاعب، ولذلك دعت اللجنة العليا للأخوة الإنسانية الجميع للصلاة من أجل أن يرفع الله هذه الآلام، سوف نصلي ونطلب منه أن يحمي الإنسانية من هذا الخطر الذي تواجهه.

وتسعى اللجنة العليا للأخوة الإنسانية إلى توحيد الإنسانية الخميس 14 مايو الجاري فيما قد يكون أكبر تجمع للبشرية من أجل هدف واحد، وسيصاحب هذا الحدث الإنساني، تغطية إعلامية غير مسبوقة، حيث أطلقت اللجنة عبر حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعي وسمين باللغتين العربية والإنجليزية، "صلاة من أجل الإنسانية" و"PrayForHumanity" لكي يتفاعل معها الجميع، من خلال تصوير مقاطع فيديو وصور ومنشورات عبر حساباتها الخاصة على مواقع التواصل الاجتماعي.

وأشاد الشيخ نهيان بن مبارك آل نهيان وزير التسامح في دولة الإمارات، بالدعوة التي أطلقتها اللجنة العليا للأخوة الإنسانية، إلى كل الشعوب في جميع أنحاء العالم، للتوجه إلى الله بالصلاة، كل فرد في مكانه، وعلى حسب دينه أو معتقده أو مذهبه، يوم 14 مايو الجاري، من أجل أن يرفع الله وباء كورونا، وأن يغيث البشر من هذا الابتلاء، وأن يلهم العلماء لاكتشاف دواء يقضي عليه وينقذ العالم من التبعات الصحية والاقتصادية التي تترتب عليه.

وأكد أن دعم الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة، لهذه المبادرة المهمة، كان بمثابة قوة دفع كبيرة لها، وبداية لمشاركة كبار الشخصيات على مستوى العالم فيها.

وذكر الشيخ نهيان بن مبارك أن تلبية دعوة اللجنة العليا للأخوة الإنسانية من قادة العالم وعلمائه ومؤسساته وشعوبه، إنما تعبر عن حالة من التوحد حول الجانب الإيماني لدى الإنسان، حتى تزول هذه الجائحة، التي أثرت على حياة كل إنسان على هذا الكوكب، وأثارت كثيراً من الشكوك حول المستقبل، مؤكداً أن الإيمان هو باب الأمل للجميع.

وعبّر الشيخ نهيان بن مبارك، عن اعتزازه بهذه المبادرة الإنسانية الرائعة، التي انطلقت من إمارات الخير والتسامح والأخوة الإنسانية، من خلال اللجنة التي تتخذ من أبوظبي مقراً لها، والمنبثقة عن "وثيقة الأخوة الإنسانية من أجل السلام العالمي والعيش المشترك"، التي وقّعها في أبوظبي فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر الشريف، وقداسة البابا فرنسيس بابا الكنسية الكاثوليكية، برعاية الشيخ محمد بن زايد آل نهيان ولي عهد أبوظبي نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة.

وثيقة الأخوة الإنسانية.. نظرة هادئة للاختلافات الدينية